الفصل الأول

الفسطاط .. النشـأة

obeikandl.com

قبل الفسطاط .. كان الفتح

جاء أول تفكير فى فتح مصر بعد إتمام فتح الشام ، حينما اجتمع الخليفة عمر بن الخطاب بقواده سنة ١٨ هـ فى بلدة الجابية بالجولان بالقرب من دمشق . فى هذا المؤتمر العسكرى تقرر فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص [١] الذى سبق له فى الجاهلية أن زارها وخبر مسالكها . وهو معدود من دهاة العرب لشدة ذكائه وحسن بلائه وسعة حيلته .

خرج عمرو بن العاص من مدينة قيسارية بفلسطين على رأس قوة من أربعة آلاف مقاتل فى أواخر سنة ١٨ هـ / ٦٣٩ م واجتاز رفح والعريش عند الحدود المصرية دون مقاومة لخلوها من الحصون . ثم سلك الطريق الساحلى وهو الطريق الذى سلكه من قبل كبار الفاتحين والتجار منذ أقدم العصور .

---

(١) هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سهم القرشى السهمى . أسلم سنة ثمان هو وخالد بن الوليد عثمان بن طلحة وقدموا المدينة مسلمين ، ولاس عمر بن الخطاب قيادة جيش فلسطين بعد وفاة يزيد بن أبى سفيان ، ثم سيره لفتح مصر فافتتحها وأقره عثمان ثم عزله عنها . وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى ، ولما قتل عثمان سار عمرو إلى معاوية بن أبى سفيان وشهد معه صفين وكان حكما له . ولا معاوية على مصر ، وتوفى بها سنة ٤٣ هـ / ٦٦٤ م ، وله من العمر ٩٣ عاما .

بلغ عمرو مدينة الفرما Pelusium [1]، وهى مدينة قديمة حصينة عند رأس الطريق الصحراوى المؤدى إلى داخل مصر ، ولذا كانت تسمى بمفتاح مصر . وبعد حصار استمر شهراً كاملاً إستولى عليها عنوة فى أوائل سنة ١٩ هـ ثم دمرها تماماً لكى لا يستفيد العدو من موقعها الإستراتيجى فيقطع عليه خط الرجعة . واصل عمرو السير جنوباً متجنبا الأراضى الزراعية والموانع المائية فى الدلتا ، ومستفيداً من الأراضى الصحراوية التى يحسن العرب القتال فيها إلى أن بلغ مدينة بلبيس فاستولى عليها بعد الوقوف أمام حصونها شهراً آخر .

اتجه عمرو بعد ذلك نحو النيل واستولى على قرية أم دنين [2] وهى مرفأ نيلى شمال حصن بابليون ، وتكبد عمرو فى هذه العملية خسائر فادحة نتيجة للهجمات التى كان يشنها الجيش البيزنطى المتمركز فى حصن بابليون على جيش عمرو .

اشتبك جيش عمرو مع البيزنطيين فى موقعة هليوبوليس أو عين شمس ، وانتصر جيش عمرو على الجيش البيزنطى بقيادة تيودور . ويرجع الفضل فى نصر عين شمس إلى الخطة التى اتبعها عمرو فى هذه المعركة ، إذ أنه أرسل فى جنح الظلام كمينا من جنده استقر غرباً فى أم دنين ، كما أرسل كمينا آخر اختبأ فى تلال المقطم شرقاً . ثم لجأ عمرو

---

(١) تقع الفرما مشرق مدينة بورسعيد ، وقد أجرى المجلس الأعلى للآثار حفائر أثرية بها كشفت عن قلعتها وآثار هامة أخرى بها .

(٢) تقع أم دنين فى الموقع المحصورين ميدان رمسيس وحديقة الأزبكية بالقاهرة .

إلى الدهاء لكى يخرج الرومان من حصنهم ، فتظاهر بالهزيمة والتقهقر فانخدع الرومان وتبعوه ، وإذا بكمين المقطم ينقض عليهم ويحول بينهم وبين الرجوع إلى الحصن ، فارتدوا غربا نحو أم دنين ، وإذا بالكمين الثانى ينقض عليهم وتدور الدائرة عليهم وتعتورهم السيوف من كل جانب فلم ينج منهم إلا القليل .

شدد عمرو بعد ذلك الحصار على حصن بابليون لأهمية موقعه الاستراتيجى ، فهو يقع على رأس الطريق المؤدى إلى العاصمة الإسكندرية ، كما أنه يحتل مكانا وسطا بين الصعيد والدلتا ، مما أعطاه قيمة عسكرية تستوجب إحتلاله .

بعد حصار دام سبعة أشهر ، وأمام شدة تصميم المسلمين على القتال ، اضطر قيرس إلى عقد مشروع معاهدة تنهى الحرب بين الفريقين حقنا للدماء ، وهى معاهدة مصر أو معاهدة حصن بابليون الأولى[1] ثم رحل المقوقس إلى القسطنطنية لعرض المشروع على الإمبراطور هرقل الذى غضب لهذه المعاهدة التى تقضى بتسليم مصر للعرب رغم وجود جيش بيزنطى كبير فيها ، واتهم قيرس بالخيانة والجبن وأمر بنفيه ، ولما علم المسلمون برفض هرقل لشروط الصلح ، شددوا الحصار على الحصن . ثم توفى هرقل بعد ذلك بقليل ، فكان لنبأ وفاته وقع سيء على الجنود البيزنطيين المحصورين إذ قضى على كل أمل فى وصول إمدادات

---

(١) أورد نص هذه المعاهدة القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، حـ ١٣ ، ص ٣٢٤

لهم، وحمل المسلمين على الحصن حملة صادقة إنتهت بسقوط الحصن فى أيديهم فى سنة ٢٠ هـ/ ٦٤١ م .

وقبل الروم شروط الصلح التى تقضى بتسليم الحصن للمسلمين بكل ما فيه من ذخائر وأسلحة ، وأن يخرج الروم منه إلى الإسكندرية فى ظرف ثلاثة أيام . على أن هذا الصلح لم يكن معناه نهاية الحرب بين العرب والروم ، إذ كانت العاصمة وهى مدينة الإسكندرية مازالت فى أيدى الروم ، وكانت محصنة تحصيناً قوياً وعلى إتصال دائم بالإمبراطورية البيزنطيه من جهة البحر .

عبر عمرو بن العاص النيل إلى الضفة الغربية وإتجه شمالاً بحذاء فرع رشيد متغلباً على المقاومات التى صادفها فى طريقة حتى وَصل الإسكندرية فهالته قوة أسوارها لدرجة أنه صلى يومئذ بجيوش المسلمين صلاة الخوف ، ثم شرع فى حصارها . وكانت حصنا من دون حصن على حد قول ابن عيد الحكم .

كان الإضطراب آنذاك يسود القسطنطنية بسبب وفاة هرقل وقيام نزاع بين ولديه قسطنطين وهرقل الثانى حول العرش . وإزاء هذه الفتن الداخلية رأى الحكام البيزنطيون العليمون بسير الأمور فى مصر ، ضرورة إنهاء الحرب مع المسلمين . فاستدعى قيرس من منفاه وأرسل إلى مصر لإنهاء الحرب بأحسن شروط ممكنة .

فى نوفمبر ٦٤١ م/ ٢٠ هـ تم إبرام المعاهدة النهائية بين قيرس وعمرو بن العاص فى حصن بابليون . ولذا أطلق عليها معاهدة بابليون الثانية

تمييزاً لها عن الأولى . وسميت كذلك بمعاهدة الإسكندرية لأنها خاصة بأهل الإسكندرية ومن أهم شروطها :

١ ـ جلاء الجيش البيزنطى عن الإسكندرية فى ميعاد غايته أحد عشر شهراً من تاريخ عقد المعاهدة .

٢ ـ أن يضمن عمرو لأهل المدينة حريتهم الشخصية والدينية وسلامة أرواحهم وممتلكاتهم .

٣ ـ أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين فى كل سنة ويعفى الشيوخ والنساء والصبيان والرهبان .

٤ ـ اشترطت المعاهدة بقاء اليهود فى مدينة الإسكندرية ، ويقال ان عددهم بها كان كبيراً .

دخل عمرو بن العاص الإسكندرية بعد جلاء الجيش البيزنطى عنها ، وتوفى قيرس بعد ذلك بقليل ، وفتح عمرو إقليم برقة الذى كان يتبع مصر آنذاك .

تجدر الإشارة هنا إلى المساعدات القيمة التى قدمها المصريون إلى الجيش المسلم أثناء حروبه مع البيزنطيين ، إذا أصلحوا لهم الطرقات وأقاموا لهم المنازل والجسور وأمدوهم بالطعام وعلف الحيوان . . الخ . وقد كان لهذه المساعدات أثرها فى إتمام الفتح [١] .

---

(١) د . أحمد مختار العبادى ، أحداث مصر الإسلامية والمغرب والأندلس ، من ص ٤٥٣ : ص ٤٥٩ ، فى كتاب أزمنة التاريخ الإسلامى ، الكويت ١٩٨٢ م .

وتجب الإشارة هنا إلى أن المجتمع المصرى كان ينقسم إلى مناطق يعيش فيها المحتلون البيزنطيون معزولة إلى حد ما عن المصريين ، وكانت هذه المناطق ذات طابع يونانى رومانى ، وهؤلاء إختلفوا مع المصريين الذين يدينون بالمسيحية فى مذهبهم الدينى ، وما ترتب على ذلك من اضطهاد المحتل لهم .

والأمر الآخر الهام هو أنه قد حدث زلزال فى مصر فى أوائل القرن السابع الميلادى ، دمر أجزاء كبيرة من مدن الدلتا وقراها ، ومازالت شواهد هذا الزلزال باقية إلى اليوم فى التلال الأثرية فى مطوبس وسيدى سالم وفوة ودمنهور وتل بسطا وإبطو . . وغيرها من المراكز العمرانية بالدلتا ، وتجرى ببعض هذه الأماكن أعمال حفر أثرى كشفت عن أحداث كثيرة مجهولة فى تاريخ مصر ، وهذا الزلزال أدى إلى تناقص سكان مصر قبيل الفتح الإسلامى لمصر .

obeikandl.com

الفسطاط .. النشأة

أدت التطورات التى صاحبت حركة الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إلى تأسيس عدد من المدن أو القواعد العسكرية ، التى تحولت فيما بعد إلى مدن ، وكان لتأسيس هذه القواعد أثره فى تطور عمارة المدن الإسلامية ، أول هذه المدن هى البصرة التى أسسها عتبة بن غزوان سنة ١٢ هـ/ ٦٣٣ م ، والكوفة التى أسسها سعد بن أبى وقاص سنة ١٧ هـ// ٦٣٨ م . وتلتها الفسطاط سنة ٢١ ـ/ ٦٤٢م.

**** موقع الفسطاط**

يقول المقريزى عن موقع الفسطاط « اعلم أن موقع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف بعضه اليوم بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيرة من مدينة الإسكندرية

ويقيم فيها ما يشاء ثم يعود الى دار الامارة [١] هكذا تحدث المقريزى عن موقع مدينتنا الفسطاط ، فعندما فتح المسلمون مصر ، كانت الإسكندرية عاصمة البلاد ، ففكر عمرو بن العاص فى أن يتخذها قاعدة للادارة والجيش ، ألا أن عمر بن الخطاب لم يوافقه على ذلك ، وأمره بانشاء مدينة جديدة لا يفصله عن المسلمين فيها ماء فى شتاء ولا فى صيف . فاختار عمرو موقع المدينة ـ التى عرفناها فيما بعد بالفسطاط [٢] .

وأغلب الظن أن عمرو قد فطن إلى أهمية ومميزات هذا الموقع والتى يمكن اجمالها فى الآتى : ـ

ـ إن فى اختياره ارضاء للمصريين الذين بغضوه فى الإسكندرية باعتبارها رمزا لظلم الرومان واضطهادهم لهم [٣] .

ـ كذلك من الأفضل لعمرو وجماعته اقامتهم عند حصن بابليون ، الذى سموه بقصر الشمع فيما بعد ، فى قلب مصر حيث العناصر الوطنية المسالمة التى كانت تنظر للمسلمين كمنقذين لهم من ظلم الرومان [٤] .

---

(١) المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، حـ ١ ، ص ٢٨٦ .

(٢) د . عبد الرحمن زكى ، الفسطاط وضاحيتها العسكر والقطائع ، ص ٥ المكتبة الثقافية ١٥٨ ، ١٩٦٦ م .

(٣) د . حسن الباشا ، دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ص ١٩٣ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٥ م .

(٤) د . حسن الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ٥٦ .

ـ أيضا كان هذا الموقع يمتاز بحصانة طبيعية اذ تحميه تلال المقطم من الشرق والجنوب ويحميه من الغرب خندق مائى طبيعى هو نهر النيل الذى كان فى الوقت نفسه يصل بين الشمال والجنوب [١].

ـ يقع عند رأس الدلتا وهو بذلك يشرف على جميع طرق الملاحة فى فروع النيل وعلى جميع طرق القوافل فى الصحراء ويسهل انتقال الجيوش منها إلى أى جهة فى الوجه القبلى أو البحرى برا أو بحرا مادامت فى مركز متوسط بين الوجهين وذلك لقمع أى فتنة فى البلاد ضد النظام الجديد [٢].

ـ من مزايا موقع الفسطاط أيضا توفر الشرط الذى يجب أن يعنى به فى بناء المدن وهو ان يكون لها جانب يمكن أن يطرد فيه اتساعها وهذا الاتجاه بالقياس إلى الفسطاط هو الشمال فلما أريد توسعتها بنيت العسكر ، ثم القطائع ، فالقاهرة ، وفى العصر الحديث شيدت العباسية ، ثم مصر الجديدة فمدينة نصر [٣].

ـ وأخيرا جاء هذا الموقع متفقا مع طبيعة وحياة العرب البدوية من حيث وجود الماء والصحراء [٤]فقد كان من طبيعة العرب وعاداتهم أنهم

---

(١) د . حسن الباشا ، قبل ان تكون القاهرة ، ص ١٣ .

(٢) فؤاد فرج ، القاهرة ، حـ ٢ ، ص ٢٨٧ ، ٣١٦ .

(٣) د . عبد الرحمن زكى ، المرجع السابق ، ص ٦ .

(٤) بارتولد (ف) تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٩٤ . ط ٥ دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣م .

محمود الحسينى ، التطور العمرانى لعواصم مصر الإسلامية ، ص ١٨ ، رسالة دكتوراه غير منشورة بمكتبة جامعة القاهرة ، ١٩٨٧ م .

إذا نزلوا مكانا واطمئنوا إلى وجود ماء لا ينضب وأرض تنبت النخيل والحب فتأكل الأبل والشياه ، أقاموا فيه [١]، ويؤكد ذلك أن عمرو بن العاص عندما استشار أصحابه أين ينزل ؟ فقالوا : ترجع أيها الأمير إلى فسطاطك فتكون على ماء وصحراء [٢].

كانت الفسطاط تشغل مساحة طولها من الشمال إلى الجنوب فى حدود خمسة ألاف متر وعرضها من الشرق (حيث جبل المقطم) ، الى الغرب (حيث النيل) حوالى ٣٨٠٠ م [٣].

* تسميتها

تضاربت أقوال الباحثين حول سبب اطلاق اسم الفسطاط على مدينة المسلمين الجديدة بمصر ، يقول القزوينى : « الفسطاط هى المدينة المشهورة بمصر ، بناها عمرو بن العاص ، قيل : انه لما فتح مصر عزم الإسكندرية فى سنة عشرين ، وأمر بفسطاطة أن يقوض فإذا يمامة قد باضت فى أعلاه فقال : تحرمت بجوارنا ، اقروا الفسطاط حتى يفقس وتطير فراخها ، ووكل به من يحفظه ومضى نحو الإسكندرية وفتحها ، فلما فرغ من القتال قال لأصحابه : أين تريدون تنزلون ؟ قالوا : يا أيها الأمير نرجع

---

(١) نقولا زيادة ، لمحات من تاريخ العرب ، ص ٢٢٩ ، دار الكتاب اللبنانى ، سنة ١٩٦١ .

د . محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٢) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، حـ ٤ ، ص ٢٦٣ .

د . محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) د . محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

إلى فسطاطك لنكون على ماء وصحراء ! فرجعوا إليها وخط كل قوم بها خطاً بنوا فيها وسمُى بالفسطاط [١].

وهذه الرواية شاعت عند المؤرخين المسلمين ، غير ان بعض العلماء المحدثين يعتبرون هذه القصة اسطورة من نسج الخيال ومن نمط الأساطير التى تحاك عادة حول تأسيس بعض المدن أو تشيد بعض المؤسسات[٢].

ويعتقد بعض المستشرقين ان كلمة فسطاط قد اشتقت من أصل يونانى هو « فسطاطوم » اسم المدينة أو الحصن أو الخندق الذى كان عند بابليون حرفه العرب إلى فساط ثم إلى فسطاط . ويرى الدكتور حسن الباشا ان هذا الزعم لا يسنده أى دليل من التاريخ ، ولا يتفق مع منطق الأحداث . وهو رأى صائب . ونتفق معه فيه .

وهناك رأى آخر يقول ان الفسطاط ومعناها المخيم قد أخذت من المخيم الذى كان قد نصبه جيش عمرو عند محاصرته حصن بابليون وقد صار يطلق على المدينة التى شيدت مكانه . على أنه مما تجدر ملاحظته أن « فسطاط » لفظة عربية كانت تطلق أيضا على المدينة ومجتمعها . وقد جاء فى الحديث عن النبى (ص) انه قال-: « عليكم بالجماعة فان يد الله على الفسطاط » أى مع المدينة التى بها مجتمع الناس . ومما له دلالته ايضا أن البصرة أيضا كان يقال لها الفسطاط ولذا فمن المرجح ان المسلمين

---

(١) زكريا بن محمد بن محمود القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٣٦ .
(٢) د . حسن الباشا ، قبل أن تكون القاهرة ، ص ١٤ .

قد اطلقوا على المدينة التى أسسوها فى مصر اسم الفسطاط بمعنى المدينة كما اطلق على البصرة ايضا الاسم نفسه وكما اطلق من قبل على يثرب اسم المدينة وقد ذكرت المدينة فى القرآن الكريم بضع مرات مثل « ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله » سورة التوبة الآية ١٩ (١).

** خطط الفسطاط

بدأ عمرو بن العاص أولى خطواته فى تخطيط المدينة بتشييد مسجده الجامع والذى سمى فى بعض الأحيان بالجامع العتيق وبجامع عمرو بن العاص ، وفى احيان أخرى بجامع الفتح وتاج الجوامع . كما عرف بمسجد أهل الراية وهم نخبة من الأنصار والمهاجرين ـ كانوا يؤلفون بعض قوات عمرو (٢).

ـ ورغم صغر حجم الجامع البالغ مساحته ٢٥ × ١٥ مترا (٥٠ × ٣٠ ذراعا) (٣). إلا أنه كان أساس التنظيم العمرانى للمدينة (٤)فقد التفت حوله بقية مراكزها العمرانية كما كان يسيطر على حياة المدينة إجتماعيا وإقتصاديا لوقوعه على النيل واحاطته بالأسواق ، ولذا كانت له أهمية كبيرة فى الحياة السياسية والادارية لوقوعه بجوار دار الامارة حيث أقام

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٢) عبد الرحمن زكى ، حواضر العالم الإسلامى ، ص ٢ مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٩م.

(٣) د . حسن الباشا ، قبل أن تكون القاهرة ، ص ١٦ .

(٤) د . حسين مؤنس ، تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون حـ ٢ ، ص ٣٧٧ موسوعة تاريخ الحضارة المصرية .

عمرو لنفسه دارا فى شرق الجامع سميت هذه الدار باسم « دار عمرو الكبرى » كما بنى ابنه عبد الله بن عمرو دارا ملاصقة لدار أبيه عرفت بدار « عمرو الصغرى » وترك عمرو بن العاص أمام داره فضاء أى ميدانا واسعا لموقف دواب الجند من خيل وجمال وحمير [١].

ولما وجد عمرو أن هذه القبائل تتنافس على المواضع المحيطة بالمسجد فما كان منه ألا أن أختار أربعة من قواده يمثلون القبائل الكبرى للفصل بينهم وتقسيم الخطط بينها حتى لا ينشب بينها نزاع وهؤلاء الأربعة الذين أسندت اليهم هذه المهمة هم معاوية بن صريح النجيمى ، وشريك بن سمى القطيفى ، وعمرو بن قحزم الخولانى ، وحويل بن ناشر السنافرى ، وباشر هؤلاء الأربعة توزيع القبائل على الخطط (فأنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل [٢] وعلى كل حال فان هذا البناء فى تلك المرحلة المبكرة كان يمثل نظاما إسلاميا خالصا ، وجاء وفق التوجهات الدينية والسياسة وما ترمى إليه الادارة المركزية بالدولة الإسلامية وكان طبيعيا أن تأخذ خطط الفسطاط فى أول عهود مصر بالإسلام قدرا من

---

(١) د . محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٢) يذكر المقريزى (أن الخطط التى كانت بمدينة الفسطاط بمنزلة الحارات التى هى اليوم بالقاهرة ، فقيل لتلك فى الفسطاط خطة وقيل لها فى القاهرة حارة ، المقريزى : الخطط ، حـ ١ ص ٢٩٦ .

وتعنى كلمة خطه أيضا ـ الأرض التى ينزلها الإنسان ولم ينزلها قبل نازل ، أو ما يخطه الإنسان لنفسه من الأرض أى يجعل لها حدودا ليعلم أنه نازلها وأنها له ، ثم اتسع معناها وصار يقصد به الحى الذى تختص به القبيلة أو أصحاب المهنة الواحدة أو طائفة من الناس عند تعمير مدينة من المدن .

الخصوصية بما يعكس لنا حياة أفراد القبائل فى تلك الحاضرة الوليدة[1].

وأهم ما يقابلنا من خصوصية ، شكلت حياة المسلمين فى ولاية عمرو بن العاص بطابع خاص أن الخطط فى بنائها قد صارت محكومة بأسس الدين وقواعد الأخلاق ، وموصولة أيضا بالرغبة فى استطابة الحياة بتأثير الضرورى نهوضا للتفرغ للجندية ونشر الجهاد واختطت القبائل خططها وبنيت الدور والمساجد وسميت هذه الخطط بأسماء القبائل والجماعات التى اختطتها ، وهكذا وزعت الخطط وتألف من مجموعها أول عاصمة إسلامية بالديار المصرية ، وأول نواة للعمارة الإسلامية بها[2].

بلغ عدد القبائل التى اختطت بالفسطاط نحو ست عشرة ومائة خطة ما بين قبائل وبطون موزعين على النحو التالى : ـ

* ثمان عشرة قبيلة وبطن من عدنان (عرب الشمال) .

* ست وثمانون قبيلة وبطن من قحطان (عرب الجنوب) وهم ثمان وخمسون لكهلان ، وسبع وعشرون لحمير ، واحد لسبأ .

* سبع قبائل من جنس غير عربى .

* خمس قبائل خاصة .

---

(١) د . محمد أحمد محمد ، مظاهر الحياة الاجتماعية بالفسطاط فى ولاية عمرو بن العاص ، ص ٧٨ ، ٧٩ ، مجلة التاريخ والمستقبل ، المجلد الثانى ، العدد الأول ، ١٩٩٢م.

(٢) د . محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

ومما يلاحظ على مواضع هذه الخطط ، أن القبائل العدنانية اختطت جميعها إلى شمال الفسطاط ، ومعظم القبائل القحطانية إختطت إلى جنوب الفسطاط ، مما يرجح بان هذه القبائل راعت فى اختيار مواقعها بالفسطاط ان تكون متفقة مع موقع إقامتهم فى بلادهم الأصلية بالجزيرة العربية (١) .

كانت خطة أهل الراية أكبر الخطط وأعظمها وأهمها باعتبارها خطة الصحابة ومقر إقامة عمرو بن العاص والى البلاد فى ذلك الوقت ، وكانت فى مجموع قبائلها أقل من ربع قبائل الفسطاط جميعها بقليل ، حيث بلغ عدد قبائلها بغض النظر عن حجم وعدد أفراد القبائل ـ حوالى ست وعشرون قبيلة وهى كالآتى : ـ

* عدد القبائل العدنانية بها أربع عشر قبيلة .

* وعدد القبائل القحطانية بها اثنى عشر قبيلة (٢) .

ولما كانت القبيلة هى الوحدة الأساسية فى البناء البشرى . لجيش عمرو بن العاص وبالتالى لمدينته الجديدة ، كانت الخطة هى الوحدة الرئيسيّة فى البناء لهذه المدينة . فيها انعكس النظام الذى اعتاده العرب على معيشتهم من طباع وعادات وتقاليد ، لذا لا نكون مبالغين إذا قلنا ان الخطة فى عمران وتخطيط الفسطاط هى مرآة القبيلة طبعت بطابعها وجاءت متفقة مع متطلباتها . وأغلب الظن أن هذه الخطط لم تكن

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣١ .

متساوية فى مساحتها وان كلا منها لم يكن حيا واسعا بل قسمت الأرض حسب الظروف والحاجة [١].

ويرى محمود الحسينى أن هذا شىء طبيعى فالقبائل لم تكن متساوية فى عدد من جاء منها إلى مصر [٢].

وعلى سبيل المثال . خطة عبد الرحمن بن ملجم التى أعطيت له بأمر الخليفة عمر بن الخطاب ليتخذ منها منزلا يعلم الناس فيه القرآن [٣]فى حين نجد خطة المعافرين تكاد تكون قد شغلت أغلب الجهة الشرقية من الفسطاط ، أيضا خطط الحمراوات التى أخذت ما يقرب من نصف مساحة الفسطاط جميعها أو أقل قليلا .

وعلى ما يبدو أن هندسة الخطة (أو شكلها) كانت أول الأمر بسيطة[٤]حيث تقيم القبيلة منازل لأفرادها على حدود خطتها وتترك ما يدور عليه فضاء وقد أخذ هذا الفضاء يضيق شيئا فشيئا ونتيجة الهجرات المتصلة التى كانت تتوافد على القبائل المتمركزة ، تحولت الفضاءات إلى تجمعات من المبانى تتخللها الدروب والأزقة .

---

(١) د . حسين مؤنس ، تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون ، ص ٣٧٧، الجزء الثانى ، ضمن كتاب تاريخ الحضارة المصرية .

(٢) محمود الحسينى ، المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٣) محمود عكوش ، مصر فى عهد الإسلام ، ص ٢٥٤ . وهذه الخطة لا تعدو أن تكون دارا واحدة كبيرة كانت أم صغيرة .

(٤) د . فريد شافعى ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٣٤٩ . المجلد الأول ، عصر الولاة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠ م .

كذلك يمكن القول بأن كل خطة كانت تحتوى على مرافقها الخاصة بصورة مصغرة [١] وأول هذه المرافق هى مساجد الخطط . والمعروف أن أول ما بنى بالفسطاط هو المسجد الجامع وهو المسجد الرئيسى الذى يجتمع فيه المسلمون جميعا ويؤدون فيه فريضة الجمعة ، ولكن كان إلى جانب هذا المسجد مساجد أخرى صغيرة خاصة بالقبائل وتقع فى داخل خطط تلك القبائل ، ذلك أن عمر لما فتح البلدان كتب إلى ولاة البصرة والكوفة ومصر يأمر كلا منهم أن يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد ، فاذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة [٢] . .

فكان لكل قبيلة مسجدها الخاص فى خططها وربما أكثر من مسجد وقد احتفظت المصادر بذكر العديد منها لاسيما مسجد لخم [٣] ومسجد عنزة بن ربيعة [٤] ، ومسجد مهره [٥] ، والمسجد الأبيض [٦] . . . الخ .

وأصبحت هذه المساجد تعرف فيما بعد باسم مساجد الصلوات الخمس ، ومن المعروف أن مسلمة بن مخلد أصدر أوامره عام ٥٣ هـ ٦٧٢ م إلى القبائل بأن تبنى كل منها منارة لمسجدها [٧] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .
(٢) المقريزى ، الخطط ، حـ ٢ ، ص ٢٤٦ .
(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٨٦ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٨٤ .
(٥) المصدر السابق ص ٨٧ .
(٦) الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٣٦٠ .
(٧) الكندى ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

obeikandl.com

وقامت مساجد الخطط بدور كبير فى حياة العاصمة لاسيما فى العصور الإسلامية الأولى ، فلم يكن المسجد مكان عبادة فحسب ، وإنما كان أيضا مكان إجتماع ومدرسة علم ، ومجلس حكم ، ولذلك كان لكل قبيلة مجلس وربما مجلسان ، مجلس فى مسجدها الخاص ، وثان فى المسجد الجامع .

ومن هذا يفهم أن المجلس كان مرفقا حيويا للقبيلة ففيه كان أبناؤها يجتمعون وعلماؤها يعلمون وقضاتها يحكمون ، وربما عن طريق هذه المجالس كانت تبلغ التعليمات الرسمية وقرارات الوالى إلى القبائل [١] .

كما كان فى كل خطة منسوبة إلى قبيلة ديوان أو سجل بالمقيدين فى الجند الرسمى من أهلها ، وفى دار الإمارة كان يوجد السجل العام أو الديوان وهو إدارة . إحصائية صغيرة تقوم بتسجيل العرب المشتركين فى الجيش .

كانت خطط الفسطاط تحتوى على الأسواق والحوانيت المفتوحة على الطرق والقيساريات [٢] وعلى المطاحن والأفران والحمامات والمساجد

---

(١) عبد الله خورشيد ، القبائل العربية فى مصر ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) قيسارية : يطلق هذا الاسم على أحد أنماط المبانى التجارية ويرجع أن الاسم مشتق من الكلمة اليونانية « قيصرية » بمعنى إمبراطورى ، أو السوق الإمبراطورى ، حيث أشار . تيرش ان الأجورا وما حولها من محلات تجارية قد أعطت الملامح الأولى للقيسارية ، والتى استعملت فى أول الأمر كمخازن بالإضافة إلى السكن ، وتوضح التسمية اليونانية ان هذه المبانى كانت تحت إشراف ملكى ، بينما القيسارية الإسلامية غلب عليها الطابع الخاص .
صالح لمعى ، التراث المعمارى الإسلامى فى مصر ، ص ٦١ ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٨٤ م .

والمطابخ ، أى المصانع التى يصنع فيها السكر والصابون ، إلى غير ذلك[1] .

ولا شك أن مركز المدينة كان يوجد به سوق المدينة المركزى والمراكز الصناعية الكبرى ، ومن المرجح أن شاطئ الفسطاط على النيل شهد نشاطاً تجاريا متزايداً . خاصة إلى أن عمرو فطن إلى أهمية حفر القناة القديمة التى كانت توصل النيل بالبحر الأحمر . ولما كان هذا الخليج قد طمس فى كثير من أجزائه عند فتح المسلمين لمصر ؛ فقد أستاذن عمرو الخليفة عمر فى إعادة شقه فسمح له وسمى بخليج أمير المؤمنين ، وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز محملة بالغلال وأنواع البضائع المختلفة[2] كما خصص عمر مكانا بالمدينة لدفن المسلمين ، وهو ما عرف بعد ذلك بالقرافة .

* تحصين الفسطاط

لم يفكر عمرو وصحبه فى إحاطة عاصمتهم الجديدة بسور ، ولم يتخذوا من حصن بابليون مركزا للدفاع كما كان حاله أيام البيزنطيين ، إذ تحول الحصن بمرور الوقت إلى خطه من خطط الفسطاط وقد اكتفى عمرو بن العاص باختيار موقع محصن تحصينا طبيعيا لتأسيس الفسطاط إذ تحميه التلال من الشرق والجنوب ، ويحميه مجرى مائى طبيعى هو نهر النيل الذى كان فى الوقت نفسه يصل بين الشمال والجنوب ، ولم يبق من

---

(١) د . فريد شافعى ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .

(٢) د . عبد الرحمن زكى ، الفسطاط وضاحيتها القطائع والعسكر ، ص ٢٨ .

الفسطاط غير جانب واحد مفتوح هو الجانب الشمالى ، ولم يهتم عمرو بتحصين هذا الجانب ، وربما . كان السبب فى ذلك أن عمرو لم يخش تعرضه للأخطار من هذا الجانب نظرا إلى أن الطريق إليه يمر بأقطار يحكمها العرب ، كما أن هذا الجانب كان المجال الطبيعى لامتداد المدينة ونموها فيما بعد .

وسمح عمرو بن العاص لبنى وهدان ومن والاهم بأن يقيموا على الضفة الغربية من النيل ، حيث بنى لهم حصنا فى الجيزة يعتصمون به عند الخطر ، وشرع فى بناء الحصن سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م وأتمه سنة ٢٢خـ/ ٦٤٣ م . ومن المحتمل أن عمرو كان يهدف من وراء ذلك إلى زيادة تأمين الجانب الغربى لمدينة الفسطاط [١] .

وقد أشارت المصادر التاريخية إلى نوع من المنشآت فى الفسطاط أطلقت عليه اسم « المحارس » ومنها محرس عمار ومحرس بنانه ومحرس الحريص ومحرس النخل ، ومحرس قسطنطين ومحرس خوى بن خوى ، ويرجح ان هذه المحارس كانت عبارة عن مبانى بسيطة بوسط خطط القبائل أو على حدودها ، ويعمل بها رجال يتولون حراسة خطة كل قبيلة ، أو أنها كانت نقاط متفرقة فى المدينة لغرض اقامة الجند ولكنها لم تكن حصونا أو قلاعا كبيرة .

---

(١) د . حسن الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ٤٦ . أسامة عبد النعيم ، أسوار صلاح الدين وأثرها فى امتداد القاهرة حتى عصر المماليك ، ص ٢ ، ٣ . رسالة ماجستير بكلية الآثار جامعة القاهرة ، ١٩٩٢ .

ونشير إلى ان تأسيس كل مدينه من مدن الفتح الإسلامى تمثل نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة فمثلت الفسطاط نهاية مرحلة فتح مصر .

وبداية مرحلة فتح المغرب ، الأدنى ثم الأوسط ، وبتأسيس القيروان على يد عقبة بن نافع ٤٥ هـ/ ٦٦٥ بدأت مرحلة إتمام فتح المغرب الأوسط والأقصى ، وانفصال ولاية المغرب عن مصر .

أما بالنسبة للفسطاط تاريخ تأسيس القيروان يمكن أن نعتبره بداية تحول الفسطاط من نمط المدينة المعسكر إلى نمط المدينة التجارية الصناعية ، وهو النمط الذى شاع فى مدن الفتح الإسلامى بعد ذلك ، حيث كانت هذه المدن قواعد لانطلاق الجيوش الإسلامية ومراكز إدارية ، فأصبحت بعد قليل مدنا داخلية بدأت تكتسب طابعا مدنيا ، واختلط فيها سكان البلاد الأصليين بالفاتحين . ومما ساعد على هذا الاختلاط أن الأعمال بالدواوين ظلت بيد الأقباط خاصة أن هذه الدواوين كانت تكتب باللغة اليونانية كما كانت عليه فى العهد البيزنطى ، وسكن هؤلاء القبط فى بعض خطط الفسطاط كخطة بابليون .

obeikandl.com